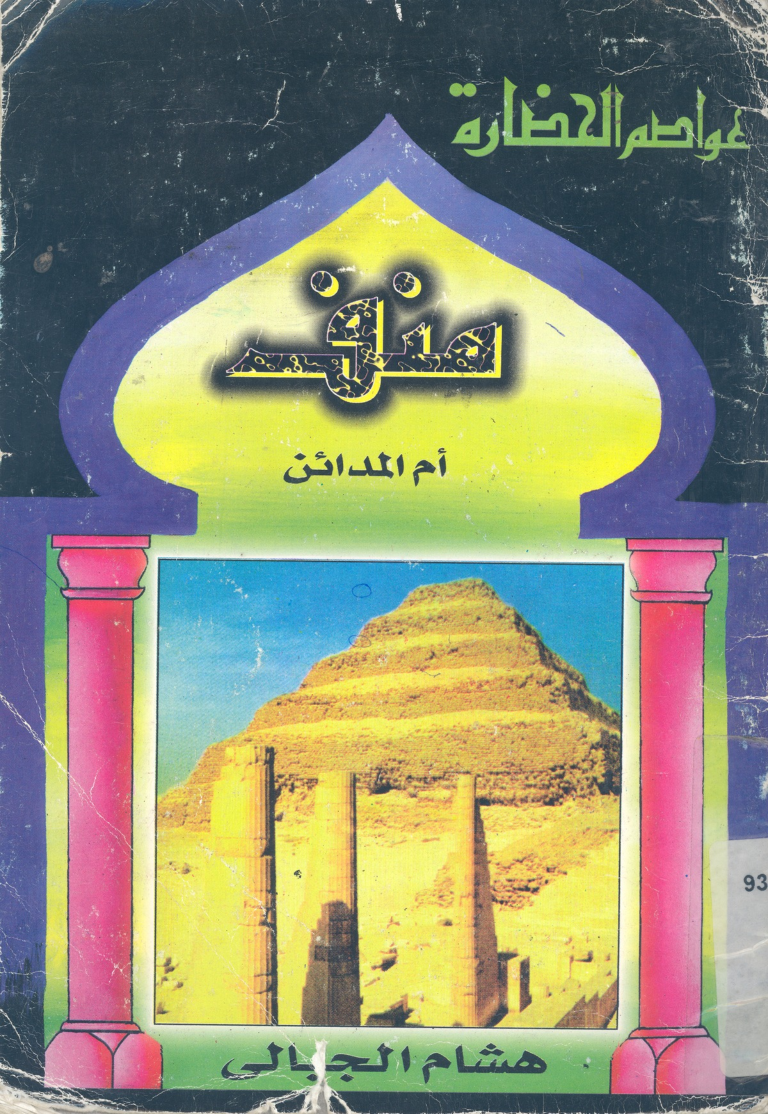

عواصم الحضارة
منف
أم المدائن
هشام الجبالى
93

عواصم الحضارة

منف

أم المدائن

المؤلف

هشام الجبالى

الناشر

دار الهدى

الإخراج الفنى

وائل طلعت

الغلاف

محمد الحديدى

الصف

دار الهدى

المراجعة اللغوية

محمد ربيع

الطبعة الأولى

١٩٩٧

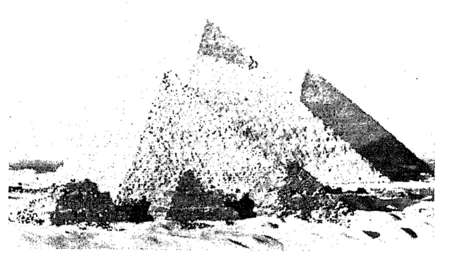

صقر
هشام الجبا
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

تاريخُ الأمسِ يكتبه الغدُ!

فى القَرنِ الثانى عشر الميلادى زارَ الرحالـةُ العَربـىُ الشَـهيرُ ابـن جبير أهراماتِ الجيزةِ، حيثُ تَوقَّفَ يَصفُ انبهارَه بها قائلاً: "أهراماتٌ قديمةٌ معجزةٌ فى بِنَائِها، غَريبَةٌ فى مَنظَرِها، مُرَبَعةُ الشَكلِ كأنَها قبابٌ مَضروبَـةٌ قد قَامتْ فـى أُفُق السَماءِ .... لـو أراد أهـلُ الأرضِ جَميعاً نقـضَ بِنائِهـا لأعجَزَهـم ذلك" !

وفى القَرنِ التالى حَاولَ رحَّالةٌ عربىٌ آخر أن يَتتبعَ الأقاويلَ الشائعةَ فى زَمانِه عن السَببِ الكَامنِ وراءَ تَشييدِ ذلك الأثرِ العَبقرىِ الخَالدِ، فَكَتَبَ فـى مُذكراتِ رحلتِه يَقول: "الأهراماتُ من عجائبِ الدُنيا، وليس على وجهِ الأرضِ شَرقِها وغربِها عمارٌ أعجبُ منها ولا أعظم ولا أرفع .... وقد اختَلَفَت أقاويلُ الناسِ فى شَخصِ منْ بَنَاها والسببِ فى بنائِه لها، فمنهم مـن قال: إنهـا قبـورٌ، ومنهم من قال: إنها شُيِّدت خوفاً من الطوفان" !

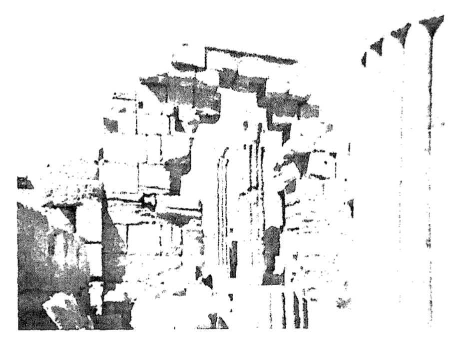
بينما أنهى رحالةٌ عربىٌ ثالثٌ حديثَـه عـن الأهراماتِ بقولـه: "مـا مـن شـئٍ علـى وجـهِ الأرضِ إلا وأنـا أخشـى عليـه مـن الدهـرِ، إلا الأهراماتِ فأنـا أخشـى علـى الدَهـرِ منها" !!



أهرامات الجيزة

هكذا توقفنـا

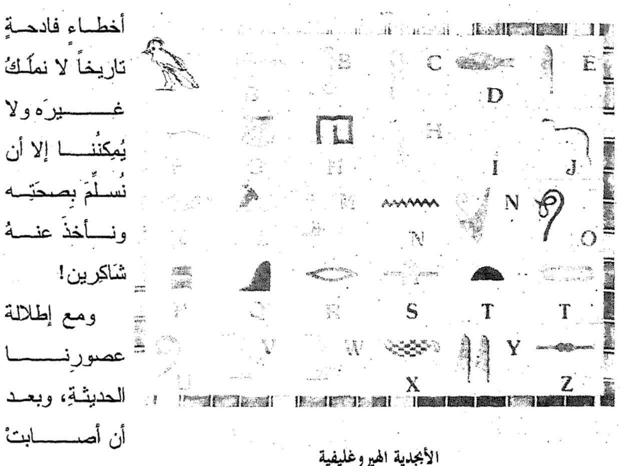
في عصورنا الوسطى أمام الأهرامات كما توقفنا أمام سائر آثار الفراعنة التي تحتضنها أرض مصر، تتملكنا الدهشة، فلا نملك سوى إظهار الإعجاب


بقايا أحد المعابد الفرعونية

واصطناع الخُرافاتِ والحكايا، عاجزين عن كشفِ حقيقةِ هذه الشواهدِ الشامخةِ التي تُسَجل لأصحابها شرفَ السبق والريادةِ في قيادةِ خُطانا، والخُروجِ بنا من عهودِ البدائيةِ والفوضى إلى عصورِ سيادةِ العقلِ والانطلاق صوبَ رحابِ المدنيةِ والتحضرِ، وهكذا خرجَ من بيننا ولم يكد ينقضي ألف وثلاثمائة عامٍ على كتابةِ كلمةِ النهايةِ في سِجلِ الفراعنةِ من يُقررُ أنهم ما لجأوا إلى تشييدِ أهراماتِهم إلا لكي يأمنوا على أنفسِهم من خطرِ الطوفانِ! ...... ولكن تُرى ما الذي جعلنا نفقدُ كلَ الصِلاتِ التي كانت تربطُنا بماضي الفراعنةِ، حيثُ غُرسَتْ بُذورُ الحضارةِ والمدنيةِ التي نجني اليومَ ثمارَها؟ ثم تُرَى كيف قُدِّرَ لنا بعدَ ذلك أن نُعيدَ اكتشافَ هذا الماضي العريقَ وأن نتعرفَ على حقيقتِه وحقيقةِ مَنْ صنعوه فخلَّفوا لنا إنجازاتِ حضاريةً أكثرَ من أن تُعدَّ أو تُحصى

نشأ التاريخُ حينما توصَّلنا إلى ابتداعِ رموزٍ بسيطةٍ نسجلُ بها علومَنا وآدابَنا وحوادثَ عصورِنا، فكان تمكُّننا من استخدامِ تلك الرموزَ هو الحدّ الفاصلَ بين عصورِنا التاريخيةِ المُسجلةِ وعُصورِنا البدائيةِ السحيقةِ التى صار التعرفُ على تفاصيلِ حياتِنا خلالِها مع كرِّ الأعوامَ وتتابعِ العقود والقرون أمراً غايةً فى العُسرِ والتعقيدِ، وقد اهتدى الفراعنةُ منذُ زَمنٍ بَعيدٍ إلى استخدامِ الكثيرِ من صورِ الطبيعةِ من حولِهم كَرموزٍ يُسجِلُون بها ما يجولُ بعقولِهم من أفكارٍ وما يجرى على ألسنتِهم من ألفاظٍ، وعامٌ بعدَ عامٍ تمكَّنوا من اختصارِ تلك الرموزِ إلى عددٍ محدَّدٍ كوَّنوا به حُروفَهم الأبجديةِ التى سمَّاها اليونانيون فيما بعد الحروفَ المقدسةَ "الهيروغليفية"، وكأى شئٍ وليدٍ أخذتْ الأبجديةُ المصريةُ فى النموِّ والتطوُّرِ، فكتبها كهنةُ المعابدِ بخطٍ خاصٍ بهم سُمِّىَ خطُ الكهنةِ "الهيراطيقى"، وكتبها عامَّةُ المصريين بخطٍ أكثر بساطةً وتطوراً سُمِّىَ الخطُ الشعبىُ "الديموطيقى"، وبعدما تمكَّن الإسكندر الأكبر من غزوِ البلادِ عام ٣٣٢ ق.م، تولَّى حُكمها ملوكُ البطالمةِ وأباطرةُ روما والقسطنطينيةِ طوالَ ما يقربُ من عشرةِ قرونٍ لم يستطيعوا خلالها فرضَ لغتِهم على أبناءِ وأحفادِ الفراعنةِ على طولِ الدلتا والوادى، فعلى الرغمِ من اتِّخاذِ اللغةِ اليونانيةِ واللاتينيةِ من بعدِها لغةً رسميةً لدواوينِ الحكمِ والإدارةِ المصريةِ من جانبٍ، واندثارِ الخطوطِ التى كَتَبَ بها الفراعنةُ لُغَتَهم بعد دخولِ المسيحيةِ إلى بلادِهم، وانتهاءِ الدورِ الذى كانت تلعبُه المعابدُ فى حياتِهم اليوميةِ من جانبٍ آخر، ظلَّ المصريون فى مدنِهم وقُراهم مُحافِظينَ على لُغَتِهم القوميةِ التى كَتَبوها حوالى القرن الثالث الميلادى بالأحرفِ اليونانيةِ بعد إضافةِ سبعةِ حروفٍ ديموطيقية لها فيما نطلقُ عليه اسم اللغةِ القبطيةِ.

وفى القرنِ السابعِ الميلادى تمَّ الفتحُ العربىُ لأرضِ الفراعنةِ وحلَّتْ لغةُ القرآنِ محلَّ اللغةِ القبطيةِ التى تَراجَعَتْ شيئاً فشيئاً حتى اقتصرَ دَورُها فى نهايةِ الأمرِ على إنشادِ التراتيلِ الدينيةِ بين جنباتِ الكنائسِ، لِتَغرُبَ بذلك شَمسُ لغةِ الفراعنةِ، ويمسى بهاؤُها الذى كان ينيرُ لنا وجهَ تاريخٍ طويلٍ من الجهدِ والإنجازِ برقاً خافتاً يصعبُ علينا رَصده والاهتداء به، وتصيرُ حقائقُ فترةٍ من أهمِ فتراتِ تاريخِنا الحضارىِّ على أبوابِ العصورِ الوسطَى مجردَ أسرار غامضة تُغَلِفُها طبقاتٌ كثيفةٌ من الخرافاتِ والأساطيرِ، إذ إنه لم يتبق لنا من تاريخِ الفراعنةِ العظامِ فى هذه العصورِ سوى مختصرٍ ضئيلِ القيمةِ لِمَا كَتَبَه المُؤَرِخُ المصرىُّ (مانيتون) فى عصرِ البطالمةِ، بالإضافةِ إلى سجلاتِ المؤرخين ومذكراتِ الرحالةِ اليونانيين التى أصبَحت بما تمتلئُ به من أخطاء فادحةٍ تاريخاً لا نملَكُ غيرَه ولا يُمكننُا إلا أن نُسلِّمَ بصحَتِه ونأخذَ عنهُ شَاكِرِين!



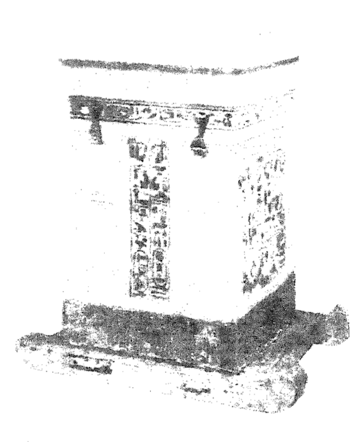
الأبجدية الهيروغليفية

ومع إطلالة عصورنا الحديثةِ، وبعد أن أصابتْ

المعارفُ الإنسانيةُ وفى مقدِمتِها عِلمُ التاريخِ نصيباً وافراً من التطويرِ والتقدمِ، بَدَأت أنظارُنا تتجهُ صوبَ الماضى البعيدِ بحثاً عن حقيقةِ الإسهاماتِ الأولى فى بناءِ صَرحِ حضارتِنا الإنسانيةِ، وفى عامِ ١٧٩٨م أبحَرتْ حملةُ (نابليون بونابرت) إلى الأراضى المصريةِ، ليَعثُرَ ضابطِ المدفعيةِ الفرنسى (بوشار) أثناءَ حفرِه فى قلعةِ رشيد على حجرِها المشهورِ الذى تلقَّفَه الباحثون وحاولوا الاستعانةَ به فى إعادةِ اكتشافِ اللغةِ المصريةِ القديمةِ، فعرفوا أن ما نُقِشَ عليه ليس إلا نصٌ واحداً سجلَ فيه كهنةُ منف شكرِهم لأحدِ ملوكِ البطالمةِ عام ١٩٦ ق.م، باللغتين اليونانيةِ والفَرعونيةِ بخطيها الهيروغليفى والديموطيقى، كما عرفوا أن اللغةَ الفرعونيةَ هى نفسُ اللغةِ القبطيةِ المكتوبةِ بأحرفٍ يونانيةٍ، غير أنهم تَعثَّروا طويلاً على طَريقِ فكِ رموزِ الخطين الهيروغليفى والديموطيقى إلى أن جاءَ (جان فرانسوا شامبليون) المولود قبل اكتشافِ حجرِ رشيد بتسعةِ أعوامٍ، والذى نُسِجَتْ من حولِه كما هو الحال مع كلِّ العظماءِ والعباقرةِ الحكايا إلى حدٍّ ذَكَرَتْ معه إحدى الصحفِ الفرنسيةِ أن عرافاً قد تَنَبأ لوالدتِه بأنها ستُرزَقُ بمولودٍ يُخلَّدُ ذِكرَها على مرِّ الأعوامِ والقرونِ، وكان أن رُزِقَتْ بجان، ذلك العبقرى الذى أحسنَ الاطلاعَ على جهودِ كلِ مَنْ سبَقوه فى محاولةِ إعادةِ اكتشافِ لُغةِ الفراعنةِ، وبدأ رِحلتَه الشاقةَ مع البحثِ والمحاولةِ من حيثُ انتهوا إلى أن كُلِّلَتْ جهودُه بالنجاحِ، ليعلنَ على العالمِ أجمعِ فى السابعِ والعشرين من سبتمبر عام ١٨٢٢م توَصلَه إلى فكِّ رموزِ الخطِ الهيروغليفى، وفى عام ١٨٢٨ ذهبَ جان فرانسوا شامبليون إلى مصرَ وتابعَ على أرضِها أبحاثَه طوالَ عامين كاملين، عَكَفَ بعدهما على تأليفِ قاموسِه فى اللغةِ المصريةِ القديمةِ، حتى إذا ما فاجَأته

الوفاةُ فى الرابعِ من مارس عام ١٨٣٢م، كان قد مَهَّدَ بجهودِه الطريقَ أمامَ الباحثين الذين جاءوا من بعدِه وواصلوا مسيرتَه، ونحت من أعوامِ عمرِه القصيرِ مِشعلاً يضيءُ لَهم سُبُلَ البحثِ، ليضيئوا لنا بدورهم حقيقةَ جذورِنا الحضاريةِ، ويزيلوا كلَّ ما علَقَ بها من خرافاتِ الجهلِ وأساطيرِهِ.

ولأن الحضارةَ فى نموها وتَطورِها أشبهُ ما تكون بالإنسانِ الذى لايمكن أن يُولَدُ ناضجاً كامل النموِ، لم يكتفِ الباحثون فى عُصورِنا الحَديثةِ بدراسةِ نقوشِ الماضى ومَخطوطاتِه بعد التعرُّفِ على اللغاتِ التى دُوِّنَتْ بها، بل تَعدَّوا ذلك كُلَّه إلى البحثِ فيما خلَّفه الإنسانُ البدائىُّ من آثارٍ فى عصورِ ما قبلَ التاريخِ، فإذا كان اكتشافنا للكتابةِ قد اعتُبِرَ بدايةَ لعصورِنا التاريخيةِ، فإن ما سَبَقَ هذه الخطوةَ الفاصلةَ من جهودٍ مُضنيَةٍ لجدير بأن نسعى إلى تَحديدِ ملامِحه والتعرفِ على قَسماتِه، وهكذا وبينما راحَ رجالُ التاريخِ يُزيلون سُحُبَ الأسرارِ عن سماء تاريخِنا القديمِ، كان علماءُ ما قبل التاريخِ يمدُّون يدَ المعرفةِ

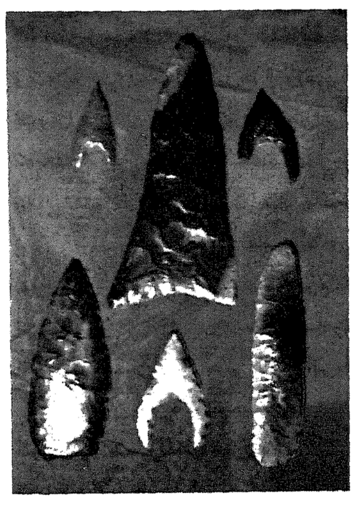


(صندوق حجرى) أحد روائع الفن الفرعونى

إلى بَاطنِ الأرضِ ويَنقلون معاولَ التنقيبِ إلى داخل المَغاراتِ والكهوفِ بحثا عن بقايا العظامِ والآنيةِ الحجريةِ والفخاريةِ، وجنباً إلى جنب ما يزالُ علماءُ التاريخِ وعلماءُ ما قبل التاريخِ يواصلونَ عَمَلَهُم، لكى يُزيلَ لنا كلُ غدٍ جديدٍ النقابَ عن وجهِ أعوامٍ وأعوامٍ موغلةٍ فى القدمِ، ولكن إلى الآن ماذا قالَ لنا الباحثونَ عن حياةِ الفراعنةِ؟ وما هو القَدر الذى أسهَموا به فى إبداعِ اللبناتِ الأولى لصَرحِ حضارتِنا الإنسانيةِ المعاصرةِ؟

- أ.ب منف ..... أ.ب حضارة

يحدثنا الباحثون بأن أرضَ مصرَ كانت قبلَ الاهتداءِ إلى الكِتابَةِ والتَسجيلِ بزمنٍ بعيدٍ مهداً لأهمِّ إسهاماتِ الإنسانِ الحضاريةِ، وهم يفترضون لانطلاقِ تلك الإسهاماتِ تاريخاً يرجعُ إلى عامِ ١٠٠٠٠٠ ق.م، حيث يَعتقِدُون أن ذلك هو الوقت الذى ظَهَرَ فيه الفراعنةُ لأولِ مرةٍ فى وادى ودلتا النيلِ، وقبل ظُهورِ الفراعنةِ بمئاتِ القرونِ، جرتْ على أرضِ مصرَ عدة تغييرات بيئية خَلَقَت منها مَسرحاً مُعَداً لكى تدورَ فى جَنَباتِه واحدةٌ من أضخمِ ملاحمِ الرُقىِّ والتَقَدُّمِ، إذ شَقَّ نَهرُ النيلِ مَجراه بين جِبَالِها ورمالِها، فقسمَ أرضَها إلى قِسمين مُختَلِفَين، أولهما الوادى فى الجنوبِ، وهو قطرٌ طويلٌ ضيقٌ تُحَفُّ به سِلسِلتان شَاهِقَتان من الجبالِ الصَخريةِ، وثانيهما الدلتا فى الشمالِ، وهى سَهلٌ مُنبَسِطٌ شديدُ الاتساعِ مُغطَّى بطبقةٍ كثيفةٍ من الطَمىِ الخَصيبِ، ولعلَّ عِظَمُ أهميةِ النيلِ فى حياةِ مصرَ هو ما دَعَى المؤرخين اليونانيين إلى القولِ بأن "مصر هبةُ النيلِ"، ولعل أيضاً ما فاضَ به على أرضِها من طميٍ خصيبٍ هو ما أَوحَى إلى الفراعنةِ أن يُطلِقوا على بلادِهم اسم "كمى" أى الأرض السوداء، تميزاً لها عن لونِ الصحراءِ الأصفرِ الذى يطوقُها من الشرقِ والغربِ.



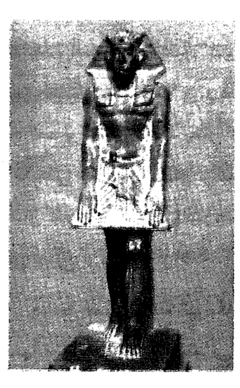
مجموعة من الأسلحة الحجرية

ومهما توفَّر لباحثى ما قبل التاريخِ من آثارٍ واكتشافاتٍ، ومهما بلغت بَراعتُهم فى تَخيُّلِ واقعِ الحياةِ فى هذه الأزمانِ الموغلةِ فى القِدَمِ، لن يستطيعَ واحدٌ منهم أن يُصَوِّرَ لنا مدى المَشَقةِ التى تَحَمَّلَها أجدادُنا الأوائلُ وعلى رأسِهم الفراعنةُ القدماءُ الذين واجهوا جَبروتَ الطبيعةِ بأعاصيرِها وفَيضاناتِها وحيواناتِها المتوحشةِ وهم عُزَّلٌ إلا من عقلٍ يدفعُهم دفعاً إلى المُحَافظةِ على وجودِهم، والسعيِ لتأمينِ يومِهم وغدِهم بالكَدِّ والمثابرةِ والابتكارِ، ولأن الأحجارَ كانت أقربَ عَناصرَ الطبيعةِ إلى مُتناولِ أيديهم، اتَخَذوا منها آنيتَهم وصاغوا من قطعِها الصلبةِ أسلحةً يُدَافِعُون بها عن أنفُسِهم ويصطادون بها غِذَاءَهم، ومن عصورِ الاعتمادِ على الأحجارِ اجتازَ الفَراعِنةُ إحدى بواباتِ الحَضارةِ إلى عُصورِ استخدامِ المعادنِ، حيثُ صَاغوا من المَعدنِ حياةً أكثرَ رُقياً، وراحوا يَعتَمدون عليه فى الإسراعِ بعجلةِ التقدُّمِ التى سلَّمَتهم إلى العُصورِ التاريخية المُسَجَّلةِ أحسنَ حالاً وأكثرَ قدرةً على تطويعِ عَناصرِ البيئةِ من حَولِهم لرغباتِهم وحاجاتِ معيشتِهم، وكما تطورتْ حياةُ

الفراعنةِ العَمليةِ مـن العصـورِ الحجريـةِ إلـى عُصـورِ اسـتخدامِ المعـادنِ التـى وَضَعَتهم على أعتابِ عُصورِهم التاريخيةِ، تَطورتْ أيضاً حياتُهم الاجتماعيـةُ، فتحوّلوا من قبائلَ صغيرةٍ تجوبُ أرضَ الوادى والدلتـا بحثـاً عـن الطعـامِ إلـى تَجمُعاتٍ مُستقرةٍ تحيا على ضِفافِ النهرِ، وتُؤلِّفُ فيمـا بينهـا القُرَى والمُدن والمقاطعاتِ التى كان يحكُم كلاً منها حاكمٌ مستقلٌ، ثم ما لَبثت أن اتحـدت فـى دَولَتين عَظيمَتين إحدَاهُما فى الدلتا، والأخرى فى الوادى، وقد قامت مُحاولتان لِدَمجِ هاتينِ الدَولَتَين لم يُكتَبْ لهما النجاحُ قبل أن يَتمكَّنَ الملكُ الجنوبـىُّ "مينـا" من السَيطرةِ على الدلتا وفرضَ حُكمهِ وحُكمِ خُلفائِه من بعدِه علـى جَميـعِ الأراضى المصريةِ من أقصى الشَمالِ إلى أقصى الجَنوبِ عام ٣٢٠٠ ق.م.


لوحة الملك (مينا)

بعد أن ظَفرَ مينا بتوحيدِ الـوادى والدِلتـا اسـتَمرَّ تـاريخُ الفراعنـةِ المُسجلُ علـى أوراقِ البَردى وأحجارِ المعـابدِ قُرابـةَ ثلاثـةِ آلافِ عـامٍ، اصطَلـحَ الباحِثون على تقسيمِها إلى سَبعةِ عُصـورٍ مُتتاليـةٍ تَضُـم ثلاثيـن أسرةً فرعونيةً حاكمـةً، وهـذه العصور هـى: "العصـر العتيـق" الـذى يَضـمُ الأسـرتينِ الأولـى والثانيـةِ، وفيـه وضـعَ الفراعِنـةُ الأوائلُ أُسسَ التنظيمِ والمَدنيةِ،


إمنمحات الثالث (الدولة الوسطى)

ومهَّدوا طَريقَ التقدمِ والرفعةِ لمن جاء من بعدِهم .... ثم "عصر الدولة القديمة" من الأسرةِ الثالثةِ إلى نهايةِ الأسرةِ السادسةِ، وفيه شُيِّدت الأهرامات، وقُطِفَتْ ثِمارُ الوحدةِ وحُسنِ الإدارةِ ... ثم "عصر الاضطرابات الأول" من الأسرةِ السابعةِ إلى نهايةِ الأسرةِ العاشرةِ، وفيه تعرَّضَتْ حكومةُ الفراعنةِ المَركزيةِ للضَعفِ، فانقسمتْ البلادُ وسَادَتها الاضطراباتُ والفوضَى ... ثم "عصر الدولة الوسطى" من الأسرةِ الحادية عشرةَ إلى نهايةِ الأسرةِ الثانيةَ عشرةَ، وفيه استعادت حكومةُ الفراعنةِ قُوتَها ووحدةَ أراضيها، فتمتعتْ مصرُ بعصرٍ ذهبيٍ يَمتلئُ إنجازاً ورقياً ... ثم "عصر الاضطرابات الثانى" من الأسرةِ الثالثةَ عشرةَ إلى نهايةِ الأسرةَ السابعةَ عشرةَ، وفيه هجمَ الهكسوسُ الرُعاةُ على أرضِ مصرَ وتمكَّنوا من احتلالِ الدلتا وجزءاً كبيراً من مصرَ الوسطَى، بينما ظلَّ الوادى يُكافحُ من أجلِ الاستقلالِ حتى تحقَّقَ له الانتصارُ .. ثم "عصر الدولة الحديثة" من الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ إلى نهايةِ الأسرةِ العشرين، وفيه استعادت مصرُ مكانَتَها واستَطَاعَتْ أن تُكَوِّن لنفسِها إمبراطوريَّةً شَاسعةً تُظَلِّلُها سماتُ القوةِ والرخاءِ والمجدِ ... ثم "عصر الأسرات المتأخرة" من الأسرةِ الحاديةَ والعشرينَ إلى نهايةِ الأسرةِ الثلاثين، وفيه تفكَّكت أراضى الإمبراطوريةِ وتعرَّضَتْ مصرُ نَفسُها لهجماتِ الآشوريين والبابليين والفرسِ، وقد قامتْ عدةُ محاولاتٍ فى ذلك العصرِ

لاستعادةِ أمجادِ الفراعنةِ، غيرَ أن الغزوَ الفارسىَّ الثانى لمصرَ عام٣٤١ ق.م قضى تماماً على كلِ هذه المحاولاتِ، ولم يكَدْ يَمرُّ على ذلك أحَدَ عشرَ عاماً حتى جاء الإسكندر واليونانيون وتمكّنوا من إلحاقِ الهَزيمةِ بالفُرسِ ليَفرِضوا سيطَرتَهم التامةَ على جميعِ أراضى الفراعنةِ.

- حينما استقرَّ مُقَامُ اليونانيين فى مصرَ بَدَّلوا اسمها من "كمى" إلى "إجبتيوس" أى مَقَر الإله بتاح رَمز مدينةِ منفَ المُقدس، ومنفُ هى هذه المَدينةُ العَريقةُ التى أقامَها المَلكُ مينا عقبَ تَحقيقِه الاتحاد عند التقاءِ الدلتا بالوادِى، وأطلقَ عليها اسم "من نفر" أى الميناء الجميل، ليحرفَه اليونانيون إلى "منفيس" والعربُ إلى منف التى ظلَّتْ عاصمةً لمصر المُوحدةِ حتى نِهايةِ الأسرةِ السابعةِ، وبَقيت لها بعد ذلك على الرغمِ من اتِّخاذِ الفراعنةِ فى الأسراتِ التاليةِ عواصمَ أخرى لحكمِهم مَكانةٌ سياسيةٌ وحربيةٌ ودينيةٌ كبرى لم ينَلها شئٌ من النَقصِ والتراجعِ إلا بَعد دُخولِ المَسيحيةِ ثم الإسلامِ إلى أرضِ مصرَ، وإذا كانت أطلالُ منفَ الواقعةَ على بُعدِ خمسةٍ وعشرين كيلو متراً جنوبى الجيزة لا تَزالُ حتى اليوم قادرةً على التأثيرِ فى نُفوسِ زائريها، فإن مَقابرَها المُنتشرةِ فى سقارةِ وهضبةِ الأهراماتِ، ستبقى

أحد السراديب المؤدية إ مقبرة الملك (زوسر) بسقارة

دوماً شاهدةً على ما تَمتعت به من ثراءٍ وتحضُرٍ ورفعةٍ كواحدةٍ من أقدمِ عواصمَ العالمِ الحضاريةِ.

- منابعُ المدنيةِ والتقدمِ

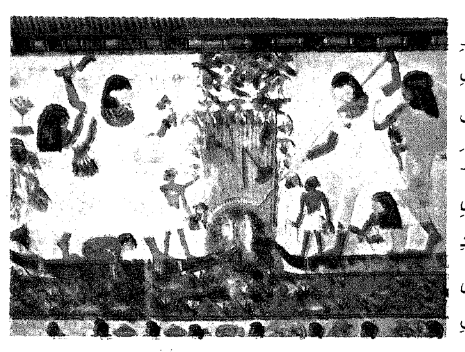
حضارتُنا الإنسانيةُ نهرٌ لا يَكفُّ عن الجَريانِ شَرقاً وغَرباً، شَمالاً وجَنوباً، يَزدادُ فى تَنقُلِه عُمقاً واتساعاً، وتَتضاعفُ مياهُه بفضلِ ما يَجِدُّ من ابتكاراتٍ واكتشافاتٍ، وهو قد يَصبُ فى هذا البلدِ اليومَ أو ذلك الوطنِ غداً، لكنه أبداً لا يَنفصلُ عن مَنابعِه وأصولِه، وفى بلادِ الفراعنةِ تكمُنُ أكثرُ هذه المنابعِ وتلكَ الأصولِ.

عاشَ الفراعنةُ فى أولِ أمرِهم حياةً بدائيةً خشِنةً قَوامُها التِرحالُ بحثاً عن الغذاءِ الذى لَمْ يكونوا يَعرِفونَ كيفَ يقومون بإنتاجِه، غير أن ذلك لم يكن ليستمر طويلاً فى وجودِ النيلِ، إذ كان يَكفِيهم حينئذٍ مُراقبةُ ما يَنبتُ على ضِفافِه من ثِمارٍ بشكلٍ طَبيعى عقب انحصارِ مياهِ الفيضانِ ليَتعلَموا كيف يَستفيدون من طَميِه الخَصيبِ، ومع الخُطواتِ الأولَى فى مِضمارِ الزِراعةِ ذَاقَ الفَراعنةُ لَذةَ الاستقرارِ وحلاوةَ البحثِ وراءَ تقدمٍ ورقىٍّ حياتِهم، ذلك البحثُ الذى كان له الفَضلُ فى نموِ وتَحسين زِراعاتِهم فى وقتٍ كانت فيه بلدانُ العالمِ أجمع فيما عدا وادى دِجلةِ والفراتِ لا تَزالُ تُكافحُ من أجلِ البقاءِ

وتَجاوزِ حَياةِ البِدائية الأولَى، فقد توصَّلَ الفراعنةُ قبلَ عُهودِ الأسراتِ بوقتٍ طويلٍ إلى ابتداعِ آلتين أصليتينِ فى عَمليةِ الزراعةِ هما الفَأسُ لتقليبِ التربةِ والمَنجلِ لِجَنى المَحاصيلِ، كما أنهم بَذلوا كلَ ما فى وسعِهم عَبرَ تَاريخِهم الطويلِ من أجلِ تَنميةِ وتَحسينِ أراضييهم وجَلبِ الأشجارِ والنباتاتِ الجَديدةِ لها من خَارجِ حُدودِهم، وليس أدلَ على ذلك من نُقوشِ قاعةِ الأعيادِ بمعبدِ الكرنكِ التى تَحدثنا بأن أول ما اهتم به تحتمس الثالث، سَادسُ مُلوكِ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ وأعظمُ الفراعنةِ الفاتحين على الإطلاقِ فى فتوحاتِه بقارةِ آسيا هو جَلبُ الجَديدِ من الأشجارِ والزهورِ والنباتاتِ لاستزراعها فى أرضِ مصرَ، كما أننا إذا عَلِمنا أن الفلاحَ المِصرىَّ لا يَزالُ محافظاً حتى اليوم على حِسابِ مواقيتِ زراعتِه بالأشهرِ الفرعونيةِ المعروفةِ باسم الأشهرِ القبطيةِ والتى تقسم العامَ إلى ثلاثةِ فصولٍ رئيسيةٍ تُقابلُ ثلاثةَ مَراحلَ مُختلفةٍ فى عَمليةِ الزراعةِ، هى الفَيضانُ والانحصارُ والحَصادُ، لن يكونَ غَريباً علينا أن نجد من يقولُ "ليس كل مصرى فلاحاً ولكن كل فلاح مصرى"! وكما تَميزت


نقش بارز بإحدى المقابر الفرعونية

ضِفـــةُ النَهـــرِ بــــــالخصبِ والنَمـاءِ، تَمـيزَت صَحـارى مصـرَ فـــى الشَـــرقِ والغَـربِ بوجــودِ عــددٍ هــائلٍ مــن الثَدييــــــــاتِ والطيــورِ، وقـــد بَذلَ الفَراعنةُ فـــى



(الصيد فى النيل) لوحة فى إحدى مقابر طيبة

بدايةِ عصورِهم جهوداً مضنيةً فى التسلُحِ، لدفـعِ أخطـارِ بَعضِ هذه الثدييـات وتلك الطيورِ واصطيادِ بعضِها الآخرِ للاستفادةِ من لُحومـهِ وجلـودهِ، ولكنهم سُرعانَ ما تَعدوا ذلك كلـه إلى استئناسِ ورَعـى قُطعانِ الأغنـامِ والماشـيةِ وممارسةِ الصَيدِ المُنَظَمِ، فصـادوا الأسودَ والخراتيتِ والتماسـيحَ والثـيرانَ الوحشيةَ، إلى جانبِ الغزلانِ وأسماكِ النيلِ والبحرين الأحمرِ والأبيـضِ، مُستبدلينَ أسلحتِهم التى كانت عادةً ما تتكون من حِرابٍ خَشبيةٍ ذاتَ نصالٍ حَجريةٍ مُدببةٍ بالأقواسِ والسهامِ والشباكِ وكـلابِ الصيدِ، ولكم افتخـرَ ملوكُ الفراعنـةِ بما استطاعوا صيدَه من حيوانـاتٍ مُفترسةٍ فـى نقـوشِ معـابدِهم وسجلاتِ حُكمِهم!

وبالإضافةِ إلى تطويرِ الفراعنـةِ لأساليبِ الزراعـةِ والرعـى والصيدِ، امتلأتْ حياتُهم الصناعيةُ بالكثيرِ من الإنجـازاتِ والابتكاراتِ، ففـاقوا شـعوبَ

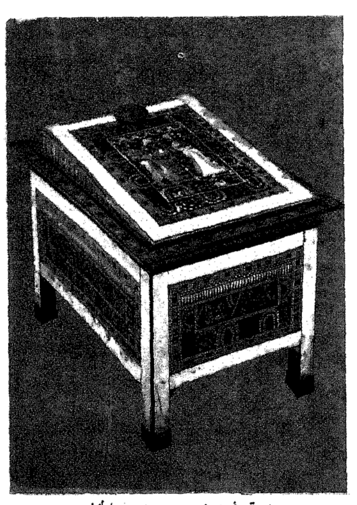
الأرضِ قاطبةً في كثيرٍ من مَجالاتِ الصِناعةِ الهامةِ، ولا عجبَ في أن يصلَ الصنَّاعُ والبَنّاءون الفراعِنة بفنونِ البناءِ بالأحجارِ إلى درجةِ من الإتقانِ والجَودةِ لم يصلْ إليها غيرُهم فى أى مكانٍ آخر بعدما وهبتهم طبيعة أرضِهم شتَّى ألوانِ الأحجارِ الليِنةِ منها والصلبةِ، ولا عَجبَ كذلك في أن تُخلِّفَ براعتُهم في استثمارِ ثرواتِهم الحَجريةِ كلَ ما تزخرُ به بِلادُهم من أهراماتٍ ومِسلاّتٍ



القناع الذهبى لمومياء (توت عنخ أمون)

ومَعابدٍ غايةٍ في الروعةِ والإبهارِ، ومن البراعةِ فى التعاملِ مع الأحجارِ إلى البراعةِ في استخدامِ المعادنِ، كان الفراعنةُ أولُ منْ اكتشفوا معدنَ النحاسِ وأحسنوا استغلاله، إلى جانبِ استغلالِهم للحديدِ والقصديرِ والبرونزِ، وصياغتِهم للذهبِ والفضةِ والأحجارِ الكريمةِ بحذقٍ ومَهارةٍ فائقتين، ولَعَلَّ نظرةً واحدةً لِمَا عُثِرَ عليه في مقبرةِ توت عنخ آمون من مصوغاتٍ وآنيةٍ معدنيةٍ كافيةٌ لكى ندركَ مَدَى ما تمتَّعوا به علِمنا أن هذه المقبرةَ قد تَعرَّضَتْ للسرقةِ في عهودِ الفراعنةِ الأواخرِ! ومثلما صَنَعَ المصرىُّ القديمُ آنيتَه من الحَجرِ والمَعدنِ صنَعَها من الفخَّارِ الذى سوّاه بيَدِه، ثم ما لبثَ أن ابتَدَع آلةً

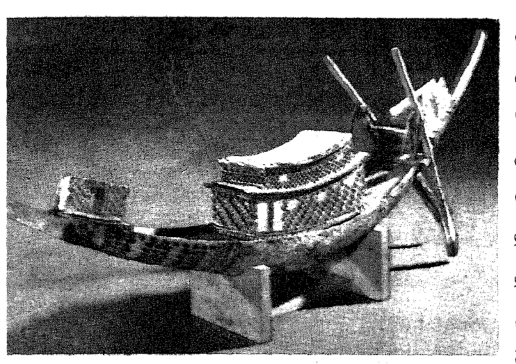
خاصةً للقيامِ بهذه المُهمةِ هى عجلة الفخارِ، ومنذ ما قبل عهودِ الأسراتِ، عرفَ المصرىُّ صناعةَ القيشانى، وصناعةَ الزجاجِ التى بَلغتْ فى عَهدِ الأسرةِ الثامنة عشرةَ درجةً من الرقىِّ والتَقدُمِ لا مثيلَ لها فى جِهاتِ الأرضِ الأربعِ، أمَّا صِناعةِ الغَزلِ والنَسيجِ فقد مارسَها الفراعنة مُنذُ أقدمِ عُهودَهم، حيثُ بَرعتْ نساؤهم فى غَزْلِ ونَسْجِ الأقمشةِ من صوفِ الأغنامِ وأليافِ الكتانِ، كذلك اشتهرتْ مصرُ الفرعونيةُ أكثر ما اشتهرتْ بصناعةِ الصحائفِ المستخدمةِ فى الكتابةِ من نباتِ البَردِى الذى لا يزالُ اسمُه "Papyrus" مستخدماً فى تَسميةِ الورقِ فى كثيرٍ من اللغاتِ الأوروبيةِ، ولأن الفراعنةَ لم يتركوا عنصراً من عناصرِ بيئتهم دونَ أن يَعملوا على استغلالِه والاستفادةِ منه، نَراهُم منذ القدمِ قد استخدموا سعفَ وأليافَ النخيلِ وعيدانَ الغابِ ونباتَ الحلفا فى صِناعةِ الفرشِ والحبالِ والسلالِ، واستثمروا الجلودَ التى صنعوا منها رداءَهم الأولَ فى صناعةِ القفازاتِ والنِعالِ.



صندوق فرعونى مصنوع من الخشب

وفى مِضمارِ الصناعاتِ الغذائيةِ تركَ لنا الفراعنةُ ما

يدلُ على براعتِهم في الكثيرِ منها، كصناعةِ شتَّى أنواعِ الخبزِ، وصناعةِ تجفيفِ الأسماكِ واللحومِ غير أن ما يثيرُ العجبَ حقاً في كلِ



نموذج خشبى لإحدى السفن الفرعونية

صناعاتِهم، هو ذلك الكمُّ الهائلُ الذى زَودوا به مَقابرِهم من المصنوعاتِ الخَشبيةِ الراقيةِ، على الرغمِ من أنه لا يوجدُ فى بلادِهم من الأشجارِ ما يصلُحُ لإخراجِ مثلِ هذه التُحفِ الرائعةِ التى تُزينُ متاحفَ العالمِ أجمع، ولا أدرى هل تخفِّفُ عجبَنا أم تزيدُه تلك النُقوشِ التى تسجل معرفتَهم للكثيرِ من آلاتِ النجارةِ، كالمطارقِ والبُلَطِ والأزاميلِ والمناشيرِ والمثاقبِ، وتدلُ على قيامِهم برحلاتٍ منتظمةٍ فى مياهِ البحرين الأحمرِ والأبيضِ، للحصولِ على الأنواعِ الجيدةِ من الأخشابِ، منذ ما قبل عُهودِ الأسراتِ، إذ كانت لهم علاقاتٌ تجاريةٌ نَشطةٌ مع بَعضِ جُزرِ البحرِ المتوسطِ، وخاصة جزيرة كريت، إلى جانب أراضى فلسطينَ ولبنان وسوريا والصومال واليمن، وقد استمرَّتْ هذه العِلاقاتُ التجاريةُ قائمة على أحسن ما يكون طوالَ عهودِ الأسراتِ، فها هى النقوش على جدرانِ المعابدِ تُسَجِّلُ قصةَ البحَّارةِ المصريين الذين أحضَروا

مَعَهُم دُباً نادراً من أراضى لبنان، لكى يَضعَه الملكُ سحورع، ثانى ملوك الأسرةِ الخامسةِ فى حديقةِ حيواناتهِ الخاصةِ!!

- أرضُ الآلهةِ والفراعنةِ

حينما تنهضُ أمةٌ ما، وتَقودُ ركْبَ الإنسانيةِ الحضارىَّ صوبَ آفاقِ الرقيِ والتقدمِ، لابد لها لكى تُحافظَ على موقعِ الصدارةِ لوقتٍ طويلٍ من أن تضمنَ لنفسِها التَفوُّقَ على سائرِ أممِ الأرضِ فى أغلبِ المجالاتِ الحضاريةِ، الماديةِ منها والروحيةِ، ليس هذا فحسب بل لابد لها أيضاً من أن تحافظَ على التوازنِ بين تقدمِها المادى من ناحيةٍ، ورُقِيها الروحِى من ناحيةٍ أخرى، حتى لا يطغَى تقدمُها الماديَّ فتفقدُ القُدرةَ على توجيهه التوجيهَ الصحيحَ، وتتراجعُ سيطرتُها على التصدى لمَا قد يَنتجُ عنه من آثارٍ ضارّة، ولا يَنالُ الرقيُّ الروحىُّ كلَّ الاهتمامِ، فتواجه حياتُها الماديةُ تأخراً حتمياً يُهدِّدُ كلَ منجزاتِها بالضياعِ.

ولقد وعَى الفراعنةُ هذه الحقيقةَ تماماً، فظلُّوا على قِمةِ الهرمِ الحضارىِّ طوالَ عشراتِ القرونِ، يقودون خطَى الإنسانيةِ



القط (باست) أحد الرموز الفرعونية المقدسة


إخنـــاتون

من عُهودِ الوحشةِ والبدائيةِ إلـى عُهودِ الاستقرارِ والمدنيةِ بثبـاتٍ ومهارةٍ لا نظيرَ لهما، ففى نفسِ الوقتِ الذى راح فيـه المصـرىُّ القديـمُ يدفـعُ عجلـةَ تقدمـــه الزراعى والصناعى والتجـارى والحربى بعـزمٍ شـديدٍ، كـانت جهودُه تتوالى وإبداعاتُه تـترَاكمُ فى شتَّى ألوانِ الفنونِ والآدابِ، إذ أنه فى هذه الأزمانِ المُوغِلـةِ فـى القـدمِ كثيراً مـا كـان ينظـرُ إلى نفسهِ والبيئةِ من حولِـه، ثم ما يلبثُ أن يتساءلَ، كيف وُجِـدَ العالمُ؟ وما هى الغايةُ من وجوده؟! لكنه أبـدا لـم يقـفْ عنـد حـدِّ التسـاؤلِ، بـل واصـلَ التفكيرَ والتدبرَ إلى أن استقرَّ إيمانهُ على ضَـرورةِ وجـودِ خـالقٍ واحـدٍ أزلىٍّ، أبدعَ العالمَ بكلِ مـا فيـه مـن روحٍ ومـادةٍ، وتثبتـتْ عقيدتُـه علـى حتميـةِ الانتقالِ بعد الوفاةِ إلى عالم آخر يتَّسـمُ بـالخُلودِ والعدلِ المُطلـق، ولأنـه أدركَ منذُ البدايةِ عجزَه التَّامَّ عن تصورِّ هيئة الخالق، لجأ إلى قوى الطبيعـةِ، واتَّخـذَ من صُورِها رموزاً ماديـة محسوسـة لصفاتـه، فقـدَّس البَقـرةَ "حتحـور" كرمـزٍ للخَيرِ والنَمـاءِ الـذى يهبـه لـه، والتمسـاحَ "سـبك" أو الثعبـان "واجيـت" كَرَمـزٍ لغَضبهِ عليه وانتقامِه منه، وهكذا قدَّس الفراعنةُ تلك الرُموزَ لا لذاتِهـا، ولكـن

لكونِهـا أدلـةٌ ماديةٌ واضحةٌ على وجُودِ الخَـالِق تَتَجسدُ فيهـا قُدرتُـه وصِفاتُـه، لذلك لم نَراهُـم يومـاً يجـدون أىَ حـرجٍ يُذكَـرُ فـى ذبـحِ الأبقـارِ للاستفادةِ مـن لحومِها، أو قتلِ التماسيحِ والثعابينِ اتقاءً لِشرورِها!

وجيلٌ من بعد جيلٍ تَوارثَ الفراعنـةُ رموزَهـم المُقدسـةَ، واتَّخـذتْ كلُّ مدينةٍ من مُدنِهم لنفسِها رمزاً مُقدساً أعلى، ارتبطتْ مكانتُه بين سـائرِ الرمـوزِ الأخرى بمكانتِها وحظِهـا مـن النموِّ والتَقَدُّم، وبفضـلِ تدفُّق الـثروةِ وتسـارُعِ عَجَلةِ الرُقىِّ المادىِّ، شيَّدَ الفراعنةُ لرموزِهم المقدسةِ معابدَ ضخمةً على طـولِ الدلتا و الوادى، وعهدوا بالخدمةِ فيها إلى الكهنـةِ الذين لـم يدَّخِـروا وسـعاً فـى إعلاءِ شأنِ تلكَ الرُموزِ والاحتفاءِ بهـا، حيـثُ سيَّروا لهـا المواكِبَ الاحتفاليـةَ الفاخرةَ، ورتَّبوا لهـا الأعيادَ التى نَقَلَها عنهُم اليونـانيون فيمـا بعـد إلـى شُـعوبِ الأرضِ قاطبةً، وشيئاً فشيئاً جعلَ الكهنـةُ مـن أنفُسِـهم حفظـةً لأسـرارِ العَقيـدةِ. المِصريةِ بعدما حوَّلُوها إلى مُجرَّدِ طقوسٍ شَكليةٍ مُعقَّدة غايتها تَمجيـد الرمـوزِ الماديةِ، وصبِّ الهِباتِ والعطايـا فـى خزائـنِ معابدِهـا، حتـى كـادَ المصريـون ينسونَ فى ذروةِ تَقَدمِهم وثَرائِهم المادىِّ على أعتابِ عَصرِ الدَولـةِ الحَديثـةِ أن هذه الرموزَ ما هـى فـى حَقيقتِهـا إلا صـورٍ ماديـةٍ تَرمـزُ إلـى صفـاتِ الخَـالِق الواحدِ الأزلىِّ، وقد جرتْ عدةُ مُحاولاتٍ لـم يُكتَبُ لهـا النجَـاحُ للقضـاءِ علـى نفوذِ الكهنةِ واستِعادَتِ مفهومِ التوحيدِ المُطلَق، كـان مـن أهمِهـا هـذه المحاولـةُ التى قام بها عاشرُ فراعنةِ الأسرةِ الثامنةَ عشرةَ "أمنحوتب الرابع" .. إخناتون.

جـاءَ أمنحوتـبُ الرابـعُ إلـى الحيـاةِ بجسدٍ هَزيـلٍ مُعتلٍ وعَقلٍ نـاضجٍ شغوفٍ بالبحثِ عن الحقيقةِ والصدقِ والحِكمةِ فى وقـتٍ تَضـاعفتْ فيـه مكانـةُ كهنةِ المعابدِ، فلمسَ فى طفولتِه وشبابِه المُبكرِ مدى تـأثيرِهم وسـيطرتِهم علـى

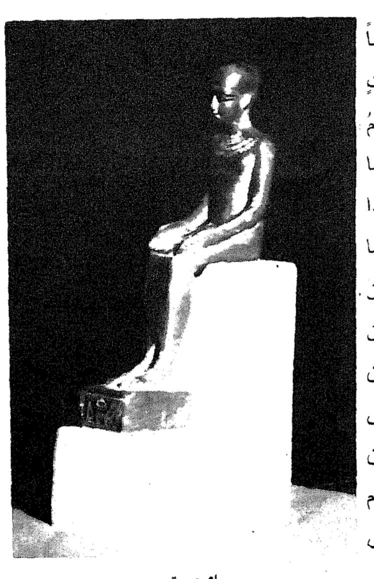
جُموعِ الشعبِ، وشَاهدَ كيف ذَهبتْ جَميعُ محاولاتِ التصدِى لهم إلى الفَشلِ والإخفاقِ، مما جعلَه يقررُ بمجرد تَوليه الحُكم وجلوسِه على عرشِ الفراعنةِ تخليصَ البلادِ من نفوذِهم، والعقيدةَ من سيطرتِهم وتعقيداتِهم، فكان أن جاهرَ بالدعوةِ لتركِ عبادةِ الرموزِ المُقدسةِ والعودةِ إلى عبادةِ الإله الواحدِ الذى دعاه "آتون" وانتسبَ إليه فأطلقَ على نفسه اسمَ "إخناتون" أى آتون النافع، ولم ينتظرْ طويلاً قبلَ أن ينتقلَ بعقيدتِه وأتباعِه إلى بُقعةٍ بكرٍ فى مصرَ الوسطَى، حيث أنشأ مَدينتَه الجديدةَ "إختاتون" أى أفق آتون وتَصَدى من على أرضِها لكهنةِ المعابدِ الذين حرضوا بدورِهم عامةَ الشعبِ على تكذيبه والمُحافظِة على رموزِهم المُقدسةِ التى وَرَثوها عن آبائِهم وأجدادِهم، وظلّوا يُقاومون نزعتَه التوحيديةَ إلى أن لَحِقتْ به الوفاةُ وانحصرتْ بوفاتِه هذه الموجةُ الروحيةُ الرائعةُ وإن ظلّ صدى هديرِها يترددُ بين حينٍ وآخَر فيما خلَّفَه وراءَه من أناشيدَ وترانيمَ ....

أيُها الإلهُ الذى سَوّى نَفسَه بنَفسِه
وأوجدَ كلَ الأرضِ وخَلَقَ كلَ من عليها
أنتَ الذى تُجرِى النيلَ على وجهِ الأرضِ
فتحفظُ أهلَ مصرَ أحياءً
لأنك خلقتَهم لنفسِك
ما أكرمُ مقاصدك يا ربَ الأبدية!

- ميلاد العبقرية

إن ما ننعمُ به اليومَ من تَحضُرٍ مادىٍ وروحىٍ نتاجٌ لجهودِ جميعِ البشرِ فى مُختلَفِ المواقعِ والعصورِ، ولكنه كما أن هناك أُمَماً بعينِها كان لها فضلُ

السبقِ والريادةِ، هناكَ أيضاً عباقرةٌ بعينِهم وُهِبُوا قُدراتٍ خاصةً، فكان لهم الإسهامُ الرئيسىُّ فى بناءِ صَرحِنا الحضارىِّ الشاهِق، وإذا كانت طبيعةُ عُصورِنا البدائيةِ قد حالتْ دونَ معرفتِنا لأعدادٍ كبيرةٍ من عباقرةِ ما قبلَ التاريخ، فإن للتاريخِ فضلاً وافراً فى تعريفِنا بالكثيرينَ الذين امتلأت صفحاتُه بأسمائِهم وجلائلِ أعمالِهم، وفى صفحاتِ التاريخِ الأولَى يَبرزُ اسمَ أحدِ أهَمِ عباقرة



إيمحوتب

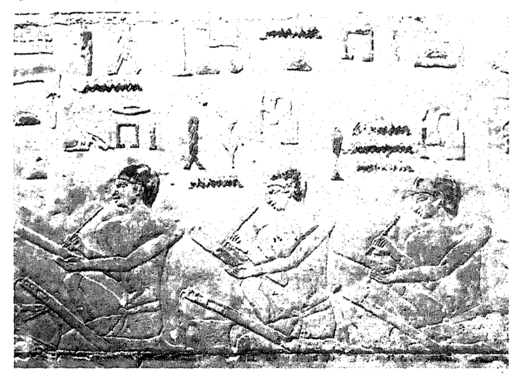
الفراعنةِ بحروفٍ من جهدٍ وذكاءٍ وقدرةٍ ...... "إيمحوتب".

حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م، وبينما كان العَصرُ الفرعونىُّ العَتيقُ يَسيرُ صَوبَ الانقضاءِ مُخلفاً أرض مصرَ المُوحدةِ وقد حُرِثَتْ جيداً وتَهيأت لكى يَبذُرَ فيها فراعنةُ عصرِ الدولةِ القديمةِ بذورَ الرقىِّ والرفعةِ، رُزقَ أحدُ مهندسى منفَ بمولودٍ أطلقَ عليه اسمَ "إيمحوتب" أى الآتى فى سلام، وبينَ طرقاتِ منف ودورِها، قضى إيمحوتب أعوامَه الأولَى، ثم كان عليه لكى

يصيرَ مصرياً بحق أن ينتظمَ فى إحدَى المدارس الملحقة بمعابدِ المدينةِ، ليُتقِنَ كلَ ما توصَّلَ إليه أجدادُه من علومٍ وفنونٍ وآدابٍ، وفى حُجرةِ الدَرسِ بدأ رحلَته مع المعرفةِ، فتَعلَّمَ مبادئَ القراءةِ والكتابةِ التى كان أجدادُه أولُ من توصَّلَ إلى ابتداعِها، ومنهم انتقلتْ إلى شمالِ غربى آسيا والقارةِ الأوروبيةِ بأسرها، بالإضافةِ إلى تعلُمِه مبادِئَ الحسابِ والهَندسةِ، حيثُ حفَّزَتْ حياةُ الزراعةِ، والحاجةُ إلى ضَبطِ مواقيتِ الرى وتنظيمِ مساحاتِ الأراضِى أجدادَه مُنذُ ما قبل عهدِ الأسراتِ إلى استخدامِ رُموزٍ عدديةٍ تيسرُ لهم إجراءَ عملياتِ الحسابِ الأوليةِ من جَمعٍ وضَربٍ وطَرحٍ وقِسمَةٍ، ثم كان عليه بعد ذلك كُلِه أن يطَّلِعَ على كلِ إبداعاتِ الفراعنةِ فى شتَّى مجالاتِ الفنونِ والآداب والطبِ، والفلكِ الذى برعوا فيه قبلَ مولِدَه بوقتٍ طويلٍ، فلم يوجدْ شعبٌ من شعوبِ الأرضِ اهتمَّ برصدِ مواقعِ النجومِ كما اهتمُّوا هم به، مما جَعلَهم يسبقونَ العَالمَ إلى ابتداعِ التقويمِ الشمسىِّ، حيثُ قسَّموا العامَ إلى اثنى عَشرَ شهراً قيمةُ كلِ منها ثلاثون يوماً، ليَصيرَ عَددُ أيامِه ثلاثمائةً وستين يوماً تضاف لها خمسةُ أيامٍ فى نهايةِ كل دورةٍ، وليس عسيرٌ علينا هنا ملاحظةَ أن ذلك التَقويمِ الذى ابتدعَهُ الفراعنةُ فى القرنِ الثالثِ والأربعينَ قبلَ الميلادِ هو نَفسُ التقويمِ الذى نَستخدمُه اليومَ مع شئٍ بَسيطٍ من التعديلِ!

وبعدَ عدةِ أعوامٍ من الدرسِ المُتواصلِ خرجَ إيمحوتب إلى الحياة العَمليةِ، فلم يَقتصرْ نبوغُه على فرعٍ واحدٍ من فروعِ المعارفِ الإنسانيةِ الوليدةِ، بل تفوَّقَ تَفوقاً رائعاً فى الكثيرِ منها، فكان عبقرياً مَوسوعىَ المَعرفةِ كأرسطو وابن رشد فيما بعد، إذ أنه إلى جانبِ براعتِه فى التنظيمِ والإدارةِ إلى حدِّ جلوسِه على كرسىِّ الوزارةِ طوال حكمِ الملكِ زوسر، أولُ فراعنةِ

الأسرةِ الثالثةِ، وتفوقِه الواضحِ فى فُنونِ البناءِ الذى تَشْهَدُ عليه مَجموعتُه الهَرميةُ الفَريدةُ فى سقارة، برع إيمحوتب فى علومِ الهندسةِ والحسابِ، فتعدَّى الفراعنةُ بفضلِه وفضلِ من جاءَ بعدَه من عباقرةِ النيلِ عَملياتِ الحسابِ البسيطةِ إلى عملياتِ الكُسورِ المُركبةِ، وتوصَّلوا إلى العديدِ من قَواعدَ ونَظرياتِ الهَندسةِ، حَيثُ قدَّروا مساحةَ المثلثِ والمُربعِ والمُستطيلِ وشبهِ



نقش بارز لمجموعة من (الكتاب الفراعنة)

المُنحرفِ، وحسبوا حجمَ متوازى المُستطيلاتِ والهرمِ الكاملِ والهرمِ الناقصِ والمِسلةِ التى هى عبارة عن هرمٍ ناقصٍ يعلوه آخرٌ كاملٌ، كما وضعوا أساسَ علم حِسابِ المُثلثاتِ من حيثُ تقديرِ قيمةِ الزوايا والارتفاعاتِ العَموديةِ، غير أن الذى يُذكرُ لهم بمزيجٍ من الإعجابِ والتقديرِ هو توصلُهم إلى كَشفِ العلاقةِ بين مساحةِ الدائرةِ وطولِ قطرِها وتَقديرُهم قيمةَ الثابتِ (ط = ٣,١٦)، بينما التقديرُ الدقيقُ الذى لم نتوصلْ له إلا فى عصورِنا الحديثةِ هو(ط = ٣,١٤)!

وكما ساهَم أيمحوتبُ فى تطويرِ فنونِ البناءِ وعلومِ الحسابِ والهندسةِ، ساهم أيضاً فى تقدُّم الآداب الفرعونيةِ حتى أن الكُتَّابَ فى العُصورِ التاليةِ كانوا يريقون عدةَ قطراتٍ من أحبارِهم تحيةً لروحِه الخالدةِ قبلَ مباشرةِ أعمالِهم، وكذلك كانت له إسهاماتُه المُتميزةُ فى الرُقىِّ بعلومِ الطبِ، مما دعَى أحدَ الأطباءِ الأوروبيين فى عصرِنا الحديث إلى مطالبةِ أطباءِ العالمِ أجمع باتخاذِه رمزاً لمهنتِهم قائلاً: "يَجبُ أن يَنظرَ الأطباءُ فى كلِّ مكانٍ إلى إيمحوتبَ باعتبارِه المنشئ العَبقرى لفنِ الطبِ"، ولا ننسى فى النهايةِ الإشادةِ بنبوغِه فى علومِ الفلكِ التى خَطَتْ من بعدِه خطواتٍ عملاقةً صوبَ التقدمِ، فسجَّلَ الفراعنةُ نتائجَ أرصادِهم فى سجلاتٍ خاصةٍ، ورسموا الخرائطَ الفلكيةَ على أسْقُفِ المعابدِ وأغطيةِ التوابيتِ، وبالإضافةِ إلى تَوصلِهم لقياسِ الزمنِ نهاراً بواسطةِ المزولةِ التى تَتكون من قَضيبين خَشَبيين يكونا معاً زاويةً قائمةً بحيثُ يَقيسُ ظلُ أحدهما على الآخر الزمنَ بمساعدةِ علاماتٍ مُحددةٍ، توصَّلوا أيضاً إلى ابتداعِ الساعةِ المائيةِ لقياسِ الزمنِ ليلاً، وهى عبارة عن إناءٍ يُملأُ لحافَتِه بالماءِ الذى يتقطَّرُ من ثُقْبٍ صغيرٍ فى أسفلهِ بمُعدَّلٍ منتظمٍ، فيَدُلُ مقدارُ الفاقِد منه على الزمنِ، وقد ظلَّ استخدامُ ذلك النوعِ من الساعاتِ قائماً إلى ما بعد انقضاءِ عهودِ الفراعنةِ بعشراتِ القرون!

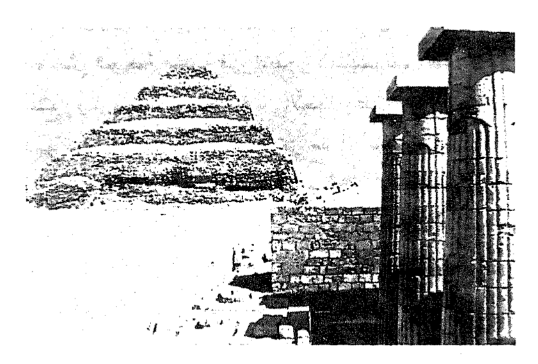
- شوامخُ فرعونية

كان هرمُ خوفو وسَيظلُ من أكثرِ آثارِ الدُنيا إثارةً للخيالِ والجدلِ، فى الماضى حاولَ الرحَّالةُ أن يعالجوا جَهلَهم بحقيقتِه بنسجِ الأساطيرِ والخُرافاتِ حولَ كيفيةِ بنائِه والغرضِ الذى شُيِّدَ من أجلِه، وفى الحاضرِ يُحاولُ من نُطلقُ عليه اليومَ اسم عُشَّاقِ الهرمِ الأكبرِ أن يضاعِفوا من قيمتِه ويبالِغوا فى

إعجازِه، فيقررُ بعضُهم أنه شُيِّدَ بطريقةٍ غامضةٍ لا يمكنُنا التوصلَ إليها، وهذا ما جَعلَه يحفظُ فى جوفِه كلَ أسرارِ الكونِ! ويزعُم البعضُ الآخر بأن حُجراتِه تُرسلُ إشعاعاتٍ غَريبةً قَادرةً على شفاءِ جميعِ الأمراضِ التى يمكنُ أن تُصيبَ الإنسانَ، بينما يخرجُ علينا أحدُهم ذاتَ يومٍ ليُعرِّفَنَا بأنَّ الذين قاموا بتشييدِه ما هم إلا مخلوقاتٌ فضائيةٌ جاءت إلينا من السماء!!

وبعيداً عن كلِ هذه الخرافاتِ يُمكنُنا القولَ بأن الحقائقَ وحدَها كافيةٌ لكى تجعلَنا نتوقفُ طويلاً أمامَ ذلكَ الأثرِ الشامخِ ناظرينَ إليه بكثيرٍ من التَبجيلِ والدهشةِ، فما هى إذن هذه الحقائق؟ وهل هى قادرةٌ على أن تكشفَ لنا سَببَ تَشييدِه والكيفيةَ التى شُيِّدَ بها؟!

قد يكونُ صَحيحاً تماماً أنه لم يَحدثْ طوالَ تاريخِنا الإنسانىِّ الطويلِ



هرم زوسر المدرج

أن شُيِّدَتْ لملكٍ أو سلطانٍ أو إمبراطورٍ ما فى مشارقِ الأرضِ ومغاربِها،

مَقبرةٌ تساوى أو تقتربُ من عظمةِ وفخامةِ الهرمِ الأكبرِ الذى يبقَى على الرغمِ من ذلك مجردَ مقبرةٍ شُيِّدَتْ لكى يُحفظَ بين جدرانِها جثمانَ المَلكِ خوفو، ثانى فراعنةِ الأسرةِ الرابعةِ، ولكى نُدركَ كيفَ يسعَى أحدُ الملوكِ لتشييدِ مثلِ هذا البناءِ الهائلِ لمجردِ أن يكونَ مقبرةً لجثمانِه، لابدَّ لنا أن نَلْمَسَ مدَى إيمانِ المصريينَ القُدماء بالبَعثِ إلى حَياةٍ أبَديةٍ بعد انقضاءِ حياتِهم الأولَى، ذلك الإيمانُ الذى استقرَّ فى نفُوسِهم فَجعلَهم يَبذلون أفضلَ ما تملك أيديهم على مختلفِ مستوياتِهم الاجتماعيةِ فى سبيلِ إعدادِ قبورِهم وتَجهيزِها بكلِّ نَفيسٍ ونادرٍ، وقد مرَّتْ هَيئةُ مقابرِ الفراعنةِ الملكيةِ بعدةِ مراحلَ مُختلفةٍ، كانت أولها هذه المقابرِ التى شَيَّدَها فراعنةُ الأسرتين الأولَى والثانيةِ، والتى أطلقَ عليها الباحثون اسمَ المصاطبِ، لكونِها عبارةً عن متوازى مستطيلاتٍ ضخمٍ مشيدٍ ...رتفعُ بميلٍ خفيفٍ إلى الداخلِ فوقَ قاعةِ الدَفنِ المَحفورةِ فى بَاطنِ ...رضِ، وتتمثَّلُ المرحلةُ الثانيةِ فى التَطورِ العظيمِ الذى ابتدعَه إيمحوتبُ لمقبرةِ الملكِ زوسر، حيثُ أقامَ بناءَها من الأحجارِ على هيئةِ ستِ مَصاطبٍ يعلو بعضُها بعضاً، بارتفاعٍ كليٍّ قَدرُه ستون متراً، أما المرحلةُ الثالثةُ، وهى المَرحلةُ التى ظَهرتْ فيها المَقبرةُ بشكلِها الهرمىِّ الكاملِ، فتَتَمَثَلُ بداياتُها فى هرمىّ الفرعون سنفرو، أول ملوكِ الأسرةِ الرابعةِ، بمنطقةِ دهشور، وقد احتفظتْ مقابرُ الفراعنةِ بعد سنفرو بهيئتِها الهرميةِ مدةً تزيدُ على عَشرةِ قرونٍ، شُيِّدَ خلالها أكثرُ من سبعينَ هرماً، أهمها على الإطلاقِ هرم خوفو الذى تخيَّرَ له مهندسوه هَضبةً مُستويةً تَبعُدُ حوالى خمسة وعشرين كيلو متراً شمالى سَقارةٍ، حيثُ ارتفعَ البناءُ لمسافةِ مائةٍ وخمسةٍ وأربعينَ متراً على قاعدةٍ مُربعةٍ طولُ ضلعها مائتان وثلاثون متراً، وعلى نفسِ الهَضبةِ



تمثال (أبو الهول)

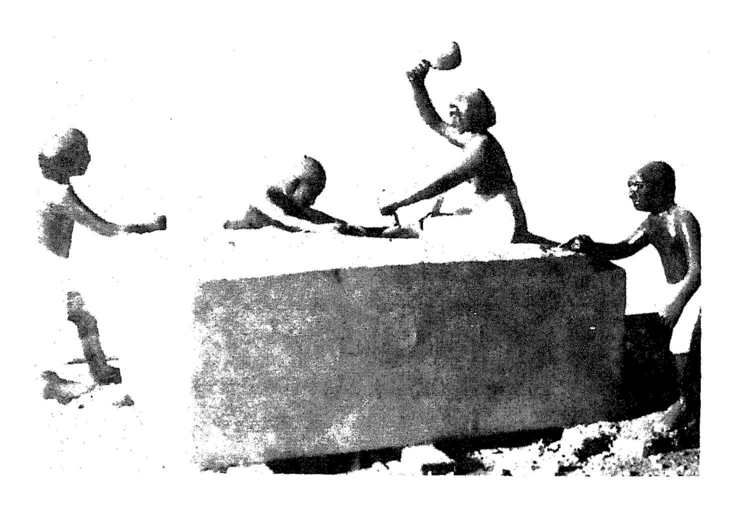
التـى نَعرفُهـا اليـوم باسـم هَضبـةِ الأهرامـاتِ، شَـيَّدَ الفرعونُ خفرع رابعُ ملـوكِ الأسـرةِ الرابعـةِ هَرمَـه بارتفـاعِ مائـةٍ وثلاثـة وأربعيـن مـتراً ونصـف، وقاعدةٍ مربعةٍ طولُ ضلعها مائتـان وعشـرونَ مـتراً ونصف، ثم جاءَ الفرعونُ منكاورع ، خـامسُ ملـوكِ نفسِ الأسرةِ وشَيَّد هرمـاً ثالثاً بارتفـاعِ ستة وسـتين مـتراً ونصـف، وقـاعدةٍ مُربعـةٍ طُولُ ضِلعِها مائـة وثمانيـة أمتـار ونصـف، وعلـى الرغـمِ مـن ضآلـة حجمِ هذا الهرمِ إذا ما قِيسَ بالهرمين الآخرين، فإنه تَمَيزَ عنهما بفخامـةِ وروعةِ المظهرِ نظراً لكِسائِه بأحجارِ الجرانيتِ الوردىِّ التى لايزالُ بعضُها باقياً حتى اليوم.

أما عنْ كَيفيةِ تشييدِ الهرمِ الأكبرِ، والطريقةِ المستخدمةِ فى قطعِ ونَقل أحجارِه التى قُدِّرَتْ بما يَزيدُ على الاثنين ونصف مليون [illegible]

كل منها اثنان ونصف طناً، مع العِلمِ بأن البنائين المصريين لم يَتَيسَّرْ لهم في ذلك الوقتِ إلى جانبِ سواعدِهم سوى أزاميلَ نحاسيةٍ لقطعِ الأحجارِ وتسويتِها، وزحافاتٍ خَشبيةٍ لنقلِها إلى مواقعِ العملِ، فلابد أولاً من أن نضعَ في الاعتبارِ الخِبرةَ الطويلةَ التي اكتسبوها من تشييدِهم لهرمِ زوسر وهرميّ سنفرو، والتي جَعَلتهم يتميزون بمقدرةٍ فريدةٍ في تَنظيمِ مثلِ هذه الأعمالِ الضخمةِ، إذ أنهم لم يتركوا شيئاً للصدفةِ بل سيَّروا عملَهم حسب خططٍ ورسومٍ موضوعةٍ بدقةٍ وحذقٍ شديدين، كما أنهم قاموا بقطعِ أغلبِ الأحجارِ المُستخدمةِ في البناءِ من نفسِ هضبةِ الأهراماتِ، فلم يجلبوا سوى أحجارِ الممراتِ والكِساءِ الخارجي من محاجرِ طرة القريبة منهم، ولا أدل على ذلك من وجودِ التمثالِ الرائعِ الذي نُطلقُ عليه اليومَ اسم أبا الهول، وهو في الأصلِ قِطعةٌ حَجريةٌ ضَخمةٌ تبقَّتْ من أحدِ مَحاجرِ الهضبةِ بعد الانتهاءِ من تشييدِ هرمِ خفرعَ، ففضَّل مهندسو البناءِ الإبقاءَ عليها وتشكيلِها على صورةِ تمثالٍ يَحملُ ملامحَ ملكِهم في هيئةِ أسدٍ رابضٍ، ثم إن قَطْعَ ونَقْلَ كُتل من الحجرِ لا يتعدى وزن أثقلِها خمسة وعشرين طناً لا يمكن وأن يُعَدُّ عملاً عسيراً على قومٍ استطاعوا بعد ذلك بوقتٍ قَصيرٍ نحتَ مسلاّتٍ عِملاقةٍ يَصلُ وَزنُ بَعضِها إلى ثلاثمائة طنٍ، ونقلَها وهي قطعة واحدة من محاجرِ أسوانَ إلى عدَّةِ مواقعَ مُتفرقةٍ على طولِ الوادي والدلتا.

وقبل أن تتساءلوا عن كيفيةِ الصعودِ بأحجارِ البناءِ الثقيلةِ إلى الارتفاعاتِ الشاهقةِ التي شُيِّدَتْ بها الأهراماتُ، أقولُ لكم إننا نستطيعُ اليومَ أن نَجزمَ بأن المهندسينَ المصريينَ قد ابتكروا لذلك طرقاً صاعدةً صَنَعُوها من مُخلَّفاتِ البِناءِ، بحيث تلتفُ حولَ الهرمِ وترتفعُ مع ارتفاعه، حتى إذا ما تمَّ

تشييدَه أُزيلتْ من أعلى إلى أسفل عقب تثبيتِ أحجارِ الكِساءِ الخارجى، وعن عددِ العاملينَ والوقتِ اللازمِ لإنجازِ مثلَ هذا العمل الهائل، خاصةً إذا علِمنا أن عَهد الملكِ خوفو لم يتجاوزْ الثلاثةَ والعشرين عاماً، الأمر الذى دَفَعَ مؤرخى اليونان إلى تصويرِ خوفو بمظهرِ الحاكِمِ المُستَبِدِّ الذى يُسَخرُ جموعَ شَعبِه من أجلِ بِناءِ مقبرةٍ له، يُحَدِثُنا الباحِثونَ بأن العملَ فى بناءِ الهرمِ لم يستغرقْ أكثرَ من عشرين عاماً، ولم يحتج إلى أكثر من مائةِ ألفِ عاملٍ يتم استبدالُهم بآخرين كل ثلاثة أشهرٍ، ولعلَّ الثراءَ الذى اشتهرَ به عَهدُ الدولةِ القديمةِ من جانبٍ، وعظمَ التبجيلِ الذى حَملَه المِصريونَ لملوكِهم من جانبٍ



تسوية أحجار البناء

آخر، يَجعلُ من توفيرِ خوفو ورجالِ إدارَتِه لرواتبِ وسُبلِ إعاشةِ مائة ألف عاملٍ من أبناءِ الوادى والدلتا، أمراً قابلاً للتَحقيقِ بَعيداً عن أى مَظهرٍ من مَظاهرِ الاستبدادِ أو السُخرةِ !



دار الهدى للنشر والتوزيع

٦ ش المجرى – شاهين – المنيا

ت ٣٤٦٧١٣ / ٠٨٦

رقم الإيداع: ٩٧/٥٣٢١

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-5822 - 05 - X



عواصم الحضارة
★ منف
★ طيبة
★ بابل
★ أثينا
★ الاسكندرية
★ روما